الفصل الأول

المطلب الأول

أولًا: معنى الإيمان والإسلام

إن إثبات الإيمان يتوقف أولًا على معرفة معنى الإيمان. ومعناه شرعًا: التصديق القلبي بوحدانية الله ـ تعالى ـ ورسالة النبي ﷺ بكل ما جاء به عن الله تعالى...

وأما الإسلام شرعًا: فهو الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعية، ويدل على هذا قوله ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب». فقد يجتمعان. وذلك في المصدق بقلبه المقر بالشهادتين. وينفرد الإسلام عن الإيمان في المنافق الذي ينطق بالشهادتين وينقاد لأحكام الإسلام ظاهرًا وهو بقلبه مكذب غير مصدق. وينفرد الإيمان عن الإسلام فيمن يصدق بقلبه ولا ينطق بالشهادتين عنادًا ولا ينقاد للأفعال الظاهرة الشرعية، وذلك ككثير من علماء اليهود الذين عرفوا أن سيدنا محمدًا ﷺ صادق ولم ينطقوا بالشهادتين ولم يتبعوه ولم ينقادوا لما جاء به، وقد قال الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فهم لا يقرون برسالته عنادًا، ويعتقدون في قلوبهم صدقه في دعوى الرسالة، فهؤلاء مؤمنون به في الباطن، مكذبون في الظاهر عنادًا، فلا ينفعهم الإيمان الباطني؛ حيث كان تكذيبهم الظاهري عنادًا.

وأما إذا كان عدم الانقياد الظاهري وعدم النطق بالشهادتين لعذر لا عناد فيه، فإن الإيمان الباطني ينفع صاحبه باطنًا عند الله في الدار الآخرة، ولكن في الظاهر يعامل معاملة الكفار، فيقال إنه كافر بحسب أحكام الدنيا. فلا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، فلنا الظاهر والله يتولى السرائر.

والعذر الذي يمنع من الانقياد في الظاهر له أسباب منها الخوف من ظالم، بأن خاف إذا ظهر إسلامه وانقياده أن يقتله أو يؤذيه أذى لا يحتمل أو يؤذي أحدًا من أولاده أو أقاربه، فهذا يجوز له إخفاء إسلامه بل لو أكرهه الظالم على التلفظ بالكفر فإنه يجوز له أن يتلفظ به، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

ثانيًا: هل النطق بالشهادتين جزء من مسمى الإيمان أو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية؟

اختلف العلماء في النطق بالشهادتين هل هو شطر أي جزء من مسمى الإيمان. أو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية، فيترتب على كونه شطرًا ـ أي جزءًا ـ أن تارك ذلك مع القدرة عليه يكون كافرًا مخلدًا في النار، وعلى كونه شرطًا لإجراء الأحكام الدنيوية يكون غير مخلد..

(١) فلقد قال الإمام السفاقسي في «شرح التمهيد»: إن كون الإيمان هو التصديق فقط هو الرواية الصحيحة عن الإمام أبي حنيفة، رضي الله تعالى عنه:

(٢) وقال العلامة العيني في «شرح البخاري»: إن الإقرار باللسان شرط لإجراء الأحكام حتى إن من صدق رسول الله في جميع ما جاء به فهو مؤمن فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ إن لم يقر بلسانه».

(٣) وقال حافظ الدين التقي: إن ذلك هو المروي عن أبي حنيفة، وإليه ذهب الإمام أبو الحسن الأشعري في أصح الروايتين عنه، وهو قول أبي منصور الماتريدي.

(٤) وقال الإمام عضد الدين في المواقف: الإيمان عندنا هو التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة. وقال شارحه السيد الشريف: يعني بقوله عندنا أتباع الإمام أبي الحسن الأشعري ﷺ.

(٥) وقد قرر الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ هذا المذهب في «إحياء علوم الدين» وأطال فيه. وهو قول إمام الحرمين وقول الأشاعرة وقول القاضي الباقلاني والأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني، ونَسَبَهُ التفتازاني إلى جمهور المحققين.

وهذه أحاديث تدل على أن الإيمان هو التصديق فقط:

(أ) قوله ﷺ: «**من علم أن الله ربه وأني نبيه صادقًا من قلبه حرم الله لحمه على النار**» رواه الطبراني في «معجمه الكبير» عن سيدنا عمران بن حصين.

(ب) ما روي في البخاري ومسلم عن سيدنا عثمان بن عفان. أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**».

(جـ) روى الطبراني عن سلمة بن نعيم الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**». قال: قلت يا رسول الله! وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**». قال: وفي أحاديث الشفاعة من هذا شيء كثير، حتى يقال له ﷺ: «**أخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة خردل من إيمان**»، بتكرير أدنى ثلاث مرات.

ثالثًا: حكم من امتنع عن النطق بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان:

١ ـ نقل التفتازاني في «شرح المقاصد» والكمال بن الهمام في «المسايرة» وابن حجر في «شرح الأربعين»: أن شرط النجاة في الآخرة إذا لم يطالب به أي بالنطق بالشهادتين، فإذا طولب وامتنع امتناعًا على وجه الإباء عن الإسلام والكراهية والعناد فلا ينجو.

ويفهم من هذا القيد أنه لو ترك النطق بعد المطالبة لا إباء عنه ولا عنادًا بل لعذر صحيح وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يكون كافرًا فيما بينه وبين الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فهذه النصوص كلها تدل على أن الإيمان هو التصديق فقط.

ويقابلها بأن التصديق وحده لا يكفي، بل لا بد من النطق باللسان مع التصديق. فمن لم ينطق مع قدرته كان مخلدًا في النار.

وقال النووي في «شرح مسلم»: اتفاق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على هذا القول، ولكن اعترض عليه على أنه اتفاق.

وقال ابن حجر في «شرح الأربعين»: إن لكل من الأئمة الأربعة قولًا بأنه مؤمن عاص بترك التلفظ، بل الذي عليه جمهور الأشاعرة وبعض محققي الحنفية ـ كما قال المحقق الكمال ابن الهمام وغيره ـ أن الإقرار باللسان إنما هو شرط لإجراء أحكام الدنيا فحسب.

٢. وهل يشترط لفظ الشهادتين بعينيهما حتى يكون الإنسان مؤمنًا:

اختلف العلماء في هل يشترط لفظ الشهادتين بلفظيهما المعروف أو يكفي الإتيان بغير المعروف مما يدل على الإيمان. وذلك فيه قولان للعلماء، فقيل إنه يشترط اللفظ المعروف ولا يكفي غيره، والراجح أنه لا يشترط خصوص اللفظ المعروف، وأن الإيمان ينعقد بغير اللفظ المعروف. ومن ثم، ليعلم أن المراد بالنطق بالشهادتين ليس النطق بخصوصيهما خلافًا للغزالي كما ذكر ذلك النووي في «الروضة»، ونسبه إلى الجميع، فنقل عن الحلبي في «منهاجه» أنه لا خلاف في أن الإيمان ينعقد بغير القول المعروف وهو كلمة لا إله إلا الله، حتى لو قال لا إله غير الله أو ما عدا الله، أو سوى الله أو من إله، أو لا إله إلا الرحمن، أو لا رحمن إلا الله أو إلا الباري، فهو كقوله لا إله إلا الله. وكذا لو قال محمد نبي الله أو مبعوثه أو أحمد أو الماحي أو غير ذلك أو مما يؤدي ذلك باللغات الأعجمية صح إسلامه، وحكم بكونه مسلمًا.

* * *

المطلب الثاني

بين المثبتين والمنكرين لإسلام أبي طالب

أولًا: القرآن الكريم[1]

استدل المعارضون لإسلام أبي طالب على كفره بثلاث آيات في سورة الأنعام والتوبة والقصص، وسوف أعرض رأي المعارضين بعد كل آية، ثم أتبعه برد المؤيدين لإسلامه بقصد إظهار الحقيقة، ورفع المظلمة عن هذه الشخصية العظيمة، والتي منها العترة الشريفة كلها.

الآية الأولى

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنعام: ٢٥-٢٧].

المنكرون

أخرج ابن كثير من طريق سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عمن سمع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: إنها نزلت في أبي طالب، ينهى عن أذى رسول الله ﷺ، وينأى أن يدخل في الإسلام. ولقد ذكر ابن كثير رأيين في هذه الآية:

- **الأول**: أنها نزلت في أبي طالب.

- **الثاني**: أنها نزلت في أعمام المصطفى العشرة. راجع «تفسير ابن كثير لهذه الآية ـ الجزء الثاني ـ مكتبة دار التراث ط ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م/ ص١٢٧».

المثبتون

١ـ قال الإمام فخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب» والإمام الطبري في «جامع البيان»: لو حملنا هذه الآية على أبي طالب لما حصل استقامة المعنى، والمقصود هم الكفار.

---

(١) نقلًا عن الليالي المحمدية في سيرة خير البرية، الجزء الرابع، شرح وتعليق شيخنا عبد الحليم العزمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢ـ ولقد قال ابن كثير في نفس تفسير الآية إنها نزلت في كفار قريش.

٣ـ قال فضيلة الشيخ الشعراوي في «تفسيره»: نزلت في الكفار والمشركين.

٤ـ الضمير في الآية ضمير الجمع، وهو ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ ﴿وَيَنْوَوْنَ ﴾. ولو كان خاصًا بأبي طالب، لكنا نجد الخطاب للمفرد.

٥ـ كيف يصح انطباق معنى ﴿ وَيَنْوَوْنَ عَنْهُ ﴾ على أبي طالب وهو الذي لم ينأ عنه طرفة عين؟ فمتى كان هذا النأي؟! أفي نصرته والقرب منه والرعاية لله ولدينه، والدفاع عن رسول الله، وعن اتباع دينه، فكيف تجتمع هذه الأعمال منه مع نأيه عنه؟!.

٦ـ في سلسلة هذه الرواية سفيان الثوري، وقد كان يكتب عن الكذابين ويروي عن الضعفاء. راجع «كتاب ميزان الاعتدال للذهبي صـ ٣٩٨»، و«إسعاف المبطأ صـ٢»، و«دلائل الصدق ج١ صـ٣٤».

٧ـ وقال سيدنا الإمام أبو العزائم «في أسرار القرآن» نزلت في الكفار واليهود والنصارى، وهذه الآية بصيغة المضارع الذي يفيد الاستمرار في كل عصر.

٨ـ ذكر الأستاذ عباس العقاد في كتابه «مطلع النور» صـ ١٣٠ قوله: فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب هو المقصود بهذه الآيات؛ لأنه كان ينهى عن أذى النبي ولا يدين بدينه، ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبي ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير.

الآية الثانية

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

المنكرون

قال ابن كثير والقرطبي: إن هذه الآية نزلت في أبي طالب بدعوى أن النبي ﷺ قال لعمه أبي طالب وهو يحتضر: «**أي عم؛ قل لا إله إلا الله**» فامتنع، فقال له النبي ﷺ: «**لأستغفرن الله لك ما لم أُنْهَ عنك**» البخاري (٤/ ٢٤٧).

المثبتون

١ـ قال الواحدي في «أسباب النزول» عن الحسين بن الفضيل: هذا قول مستبعد في أبي طالب؛ لأن هذه السورة من آخر القرآن نزولًا، ووفاة أبي طالب كانت بمكة أول الإسلام.

٢ـ قال الطبري في «جامع البيان»: نزلت من أجل أن قومًا من أهل الإيمان كانوا يستغفرون لموتاهم من المشركين فنهوا عن ذلك.

٣ـ أيد القول السابق ابن كثير في إحدى رواياته وكذلك أيده فضيلة الشيخ الشعراوي في «تفسيره».

قال أبو العزائم في «أسرار القرآن»: ﴿ مَا كَانَ ﴾ هذا نفي بمعنى النهي، فهو أبلغ من النهي المجرد، وهذا التعبير يسمى نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الشيء نفسه؛ لأنه نفي معلل بالسبب ليقتضي له، والمعنى ما كان من شأن النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبي ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم، من حيث هم مؤمنون أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين ﴿ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ لهم حق البر وصلة الرحم، وكانت عاطفة القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة ﴿وَلَوْ﴾ هذه تفيد الغاية لمعطوف عليه يحذف حذفًا مطردًا للعلم به، والمراد أنه ليس مما تبيحه النبوة ولا الإيمان ولا مما يصلح وقوعه من أهلهما الاستغفار للمشركين في حال من الأحوال، حتى ولو كانوا أولي قربى، فإن لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى. ثم قيد الحكم بقوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها، بأنهم ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر، فاستصحاب حالة الكفر إلى الموت، أو نزول وحي يسجل عليهم ذلك كإخباره ـ تعالى ـ عن أُناس من الجاحدين المعاندين من أصحاب النار أنهم خالدون فيها، أو أنهم طبع على قلوبهم وختم عليها.

٥ـ ذكر عن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ من طرق صحيحة رواها الإمام أحمد والترمذي والطيالسي وابن أبي شيبة والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ الحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي: أن السبب في نزولها استغفار أناس لآبائهم المشركين.

٦ـ كون الآية مدنية. وهذا الجمع الكبير من العلماء على أنها نزلت في استغفار أناس لآبائهم المشركين، لا ينبغي معه ترجيح أنها نزلت في أبي طالب.

وإن كان مذكورًا في البخاري ومسلم؛ إذ قد يرجح حديث غير البخاري ومسلم لأمور تقتضي ذلك.

وقد صرحوا بذلك في أصول الحديث، فقولهم يقدم حديث البخاري ومسلم أو أحدهما ليس على إطلاقه.

الآية الثالثة

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

المنكرون

١ـ قال ابن كثير والقرطبي إنها نزلت في عم النبي أبي طالب:

راجع «تفسيريهما للقرآن» في هذه الآية.

٢ـ وقال سيد قطب في «الظلال» ما نصه:

«هذا عم رسول الله ﷺ وكافله وحاميه والذائد عنه لا يكتب الله له الإيمان على شدة حبه لرسول الله، وشدة حب رسول الله له، ولا يكتب الله له أن يؤمن. ومعنى هذا أن الله كره أن يقول أبو طالب: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولكن رسول الله أحب هذا القول من عمه وأصر عليه».

المثبتون

١ـ النبي ﷺ يحب الهداية لكل الناس الأقربين والأبعدين، وكلمة ﴿ مَن ﴾ من صيغ العموم، وتفسيرها بأبي طالب وحده تصرف في كلام الله بغير دليل.

٢ـ يقول الإمام فخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب»: «هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب...».

٣ـ قال الألوسي في «روح المعاني»: مسألة إسلام أبي طالب خلافية، وحكاية إجماع المسلمين أو المفسرين على أن الآية نزلت فيه لا تصح، ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبه والتكلم فيه بفضول الكلام؛ لأن ذلك لا يبعد أن النبي يتأذي به؛ لأن الآية نطقت بحبه إياه والاحتياط لا يخفى على ذي فهم.

٤ـ هل يصح في حكم العقل والفطرة أن يحب رسول الله شيئًا يكرهه الله ويمقته؟.

إذن، كيف قرن الله طاعة رسوله بطاعته فقال: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]. وبيعته ببيعته فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠]. ورضاه

برضاه فقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. وأمره بأمره ونهيه بنهيه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. وإذا كره الله الإسلام من أبي طالب ولم يكتبه له على حد تعبير صاحب «الظلال» فعلى أي شيء يعاقبه، وهل يجوز للقوي أن يأخذ الضعيف بما لم يفعل وهو القائل: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]؟ ولماذا أحب الله الإسلام من أبي سفيان وكرهه من أبي طالب؟! هل لأن أبا سفيان كان أشد بغضًا لرسول الله، ولذا حشد له الجيوش، وشن عليه الحروب ولأن أبا طالب أحب رسول الله حبًا شديدًا، وحضنه وحماه وذاد عنه على حد تعبير صاحب «الظلال».

أم لأن أبا سفيان والد معاوية، وأبا طالب هو والد الإمام علي ـ كرم الله وجهه؟!

٥ـ هذه الآية تشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن النبي ﷺ يحب الهداية لجميع الخلق، ولكن الله لا يوفق إلا من شاء أن يهتدي من العباد، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فالمشيئة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] تعود على العبد، فالنبي ﷺ يحب الهداية للكل، والله يوفق من طلب الهداية، ولا يوفق من لم يطلبها.

٦ـ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي لك من يشاء.

٧ـ قال الأستاذ عباس العقاد في كتابه «مطلع النور» صـ ١٣٠:

وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين ظنهم أن أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فإن سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء في كتاب «الإنقاذ»، فلا هداية ولا جدال ولا نهي عن أذى النبي بعد الوفاة.

٨ـ قال الإمام أبو العزائم في تفسيره «أسرار القرآن ج ١ صـ ١٣٨»: «الهداية بيان الحقائق للسالك، حتى ينتهي الصراط المستقيم. والهداية أربعة أنواع: هداية البيان وهي هداية الرسل وورثتهم من العلماء المعاصرين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فأخبرنا سبحانه أن رسول الله ﷺ يهدى، ولكن هداية البيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فأتيت له الهداية أولًا ونفى عنه الهداية ثانيًا؛ لأن هداية الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأممهم وهداية ورثتهم من العلماء لجماعتهم لبيان سبل الله تعالى، ونفي الهداية عنهم المراد بها هداية الإحسان؛ لأنها خاصة بالله ـ تعالى ـ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فالرسول يعرفك كيف تصلي، أما أن تكون حاضرًا مع الله، فهي هداية إحسان.

فالواجب على الرسل وعلى العلماء ورثتهم بيان سبل الله تعالى. والله ـ جل جلاله ـ يهدي من يشاء إحسانًا منه. قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧]، فظهر أن النوع الثاني هو هداية الله عباده إلى صراط مستقيم.

أما النوع الثالث من الهداية، فهو الهداية العامة التي تفضل الله بها على كل الأنواع التى خلقها من حيوان ونبات وإنس وجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أي هدى كل نوع إلى ما هو ضروري له، فهدى الحيوانات المولودة فورًا إلى الرضاع من ثدي الأم، وهدى الطيور إلى التقاط غذائها من على وجه الأرض. وهذه هداية إلهامية هداها الله ـ تعالى ـ بعلم ضروري من بدء نشء خلق الكون. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ٨]. والنوع الرابع من الهداية الدخول في المكان، قال تعالى مخبرًا عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]».

ثانيًا: السنة الشريفة[1]

ورد ذكر بعض الأحاديث في كتب السيرة مع اختلاف في ألفاظها، وهذا الاختلاف هو محور إسلام وكفر أبى طالب، وسوف نخضعها جميعًا للتحليل والنقد للوصول إلى كبد الحقيقة.

المنكرون لإسلامه

حديث أن أبا طالب في ضحضاح من النار، فلقد روى البخاري ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم النبي ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك أي يحفظك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟.

(وفي رواية) «**وكان في غمرات من النار ـ أي مشرفًا ـ عليها فأخرجته إلى ضحضاح، ولو لا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**». والضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، فاستعير للنار.

وفي رواية للبخاري ومسلم أيضًا عن أبي سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «**لعله تناله شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منها دماغه...**».

---

(١) القول الصائب في إسلام أبي طالب، شرح وتعليق الأستاذ عبد العزيز العربى.

(وروى مسلم) وغيره أنه ﷺ قال: «**إن أبا طالب أهون أهل النار عذابًا...**».

قال القائلون بعدم نجاته إن هذه الأحاديث صحيحة ودالة على كفره وعلى أنه في النار، فلا يمكن القول بنجاته؛ لأن النبي ﷺ أخبر بحاله فيما بينه وبين الله في الدار الآخرة، فدل على أنه لم يكن مصدقًا بقلبه، وأما ما صدر منه من نصرة النبي ﷺ فإنما كان من باب حمية العرب والأنفة من أن يُغتال ابن أخيه من بين يديه، وقد كفله بذلك عبد المطلب.

المثبتون

(١) ردوا على المعارضين، وأن الحديث راويه المغيرة بن شعبة وهو من ألدّ أعداء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولقد اتُّهم بالزنا في البصرة. ابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة ج ١٢/ ٢٧٧». ومن رواته أيضًا عبد الملك بن عمير، وعبد العزيز الدراوردي وسفيان الثوري، وعدهم الذهبي في «ميزان الاعتدال» من الضعفاء، بل عد سفيان الثوري من المدلسين.

(٢) وكان هذا يكفي في الرد على رواة الحديث، ولكن ما رأيكم أن نرد على من فهم الحديث السابق بمنطق العقل الإيماني، إن المتأمل في هذه الأحاديث يجد أنها هي الدالة على نجاته، وذلك أن الله ـ تعالى ـ قد أخبر عن الكفار بأنهم لا يخفف عنهم من عذابها، وبأنهم لا يفتر عنهم، وبأنهم ما هم منها بمخرجين، وبأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين إلى غير ذلك.

وقد ثبت في الأثر الصحيح أن الجحيم هي الطبقة التي يعذب فيها عصاة المؤمنين وعذابهم أخف من عذاب الكفار، وحيث صح أن أبا طالب أهون أهل النار عذابًا على الإطلاق فيكون أهون عذابًا حتى من عصاة المؤمنين، ولو لم نقل بذلك لما صدق قوله ﷺ: «**أهون أهل النار عذابًا**»، ولو فرض أنه كافر يخلد في النار وهو أهون أهل النار عذابًا لكان عذاب الكفار أهون من عذاب بعض المؤمنين العصاة، وهذا لا يقول به أحد، فثبت أن عذابه أهون من عصاة المؤمنين وثبت أنه تنفعه شفاعة النبي ﷺ وبهذا خفف عنه العذاب، وجعل أخف أهل النار عذابًا فأخرج من طمطام النار وغمراتها أي أبعد عما كان مشرقًا على دخوله لولا النبي ﷺ إلى ضحضاح منها وألبس نعلين من النار فصارا لا يغطيان ظهري رجليه، وهذه هي أعلى النار لا أعلى منها، بحيث إن النار ما مست إلا تحت قدميه، وليس ذلك إلا في الطبقة الفوقانية التي هي مكان عصاة هذه الأمة، وقد صحت الأحاديث بأنهم يخرجون منها بحيث لا يبقى فيها من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان.

٣ـ المعارضون: ذكر ابن هشام في «السيرة جـ١ صـ ٤١٨»: طمع الرسول ﷺ في إسلام أبي طالب قبل وفاته فجعل يقول له: «**أي عم قلها** ـ أي كلمة التوحيد ـ **أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة**»، فأجابه أبو طالب يا بن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أننى إنما قلتها فزعًا من الموت لقلتها، ولا أقولها إلا لأسرك بها... ولما تقارب الموت من أبي طالب نظر العباس إليه فوجده يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه، ثم قال: يا بن أخى، لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: لم أسمع».

المثبتون

أولًا: لماذا طمع الرسول في اللحظات الأخيرة وهو مَن أحب عمه وأحبه عمه منذ ميلاده إلى أن انتقل كنف العم والرسول يجد أن أحن الرجال عليه عمه، فهل رسول الله كان يحب ويجل ويمشي في كنف كافر؟

ثانيًا: هل إخبار العباس لم يكن كافيًا حتى يكذبه رسول الله أو عدم سماع الرسول لما سمعه العباس دليل على الكفر؟

ثالثًا: في «المختصر في أخبار البشر لابن كثير جـ٢ صـ ١٩»: توفي أبو طالب في شوال سنة عشر من النبوة. ولما اشتد مرضه قال له ﷺ: «**يا عم، قلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة**»، فقال أبو طالب: يا بن أخي لولا مخافة السبة، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها، فلما تقارب من أبي طالب الموت جعل يحرك شفتيه فأصغى إليه العباس بأذنه، وقال: والله يابن أخي، لقد قال الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذى هداك يا عم**».

فهل كان رسول الله يقول ذلك لو أن أبا طالب مات كافرًا؟! وهل للهداية معنى غير موته على الشهادة بالوحدانية لله والتصديق بالنبوة المحمدية؟!

تعليق على المثبتين والمنكرين

١ـ ورد في الروايتين قول أبى طالب لولا مخافة السبة، فكيف يكون إسلامه سبة؟!.

٢ـ كيف يكون إسلام أبي طالب سبة على رسول الله ﷺ وهو نبي الإسلام والداعي إليه.. إذا سلمنا جدلًا على أنه سبة على بني أبيه؟ بل هل يدعو النبي إلى ما فيه سبة عليه؟

وكيف يتصور أن يكون إسلام أبي طالب سبة، وقد كان علي وجعفر وعمهما حمزة في ذلك الوقت مسلمين فعلًا علانية؟

وكيف يتصور إذا كان إسلام أبي طالب سبة على النبي وبني أبيه أن يحقق العباس هذه السبة فيقول: يا ابن أخي، لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها.

وكيف يتصور إذا كان هذا حدث فعلًا أن يقول النبي ﷺ: «لم أسمع»، مع أنه هو الذي أمره أن يقولها، وأخبره عمه بنطقها...

وكيف يتصور أن إسلام أبي طالب سبة، وهو الذي كان حاميًا ومدافعًا عن الإسلام، ولقد كان أول من ابتلي حفاظًا على الحبيب ﷺ فكيف يقول إنها سبة ثم يحميها؟ (ولكن أكثرهم يجهلون)

ـ جاء في «طبقات ابن سعد» و«سيرة ابن هشام» و«صحيح مسلم»: حضر النبي ﷺ أبا طالب عند الموت وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية المخزومي، فقال له النبي ﷺ: **«أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»**، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يردانه حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: هو على ملة عبد المطلب: وأبى أن يقول لا إله إلا الله.

وفي هذا الحديث دليل على توحيده؛ لأن عبد المطلب كان موحدًا كبقية آبائه وأجداده ﷺ، كما حقق ذلك الجلال السيوطي، وعاود فأبهم أبو طالب عليهم الجواب ليرضيهم ظاهرًا، وهو يعلم أن عبد المطلب كان على التوحيد، فهو في هذا الموقف لم يرد أن يصرح بالكلمة حرصًا منه على بقاء الحفظ للنبي ﷺ وصيانته من أذيتهم له بعد وفاته، فتكون إجابته مداراة لهم، فلما انطلقا نطق بها وأصغى إليه العباس، فسمعه ينطق بها.

ولقد أردت هنا ـ وقبل استكمال البحث ـ أن أتطرق إلى ما قاله أبو طالب من قولته: أنا على ملة عبد المطلب، فما كانت ملة عبد المطلب فوجدت الرجل كان موحدًا. وهذه بعض أدلة توحيده أُفرِدُ لها مطلبًا خاصًا.

المطلب الثالث

أدلة توحيد عبد المطلب

ذكر البرزنجي والسيوطي وغيرهما ممن ألَّفوا في نجاة آباء النبي ﷺ وأمهاته وفي أنهم كلهم على التوحيد، وذكروا في ذلك دلائل وبراهين، وأفردوا لكل واحد منهم ترجمة خاصة به:

وقد صرح في أحاديث كثيرة أنه ﷺ قال: «**لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات**» وعلى هذا حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩] من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات على أن آباء النبي ﷺ وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر؛ لأن الكافر لا يوصف بأنه طاهر. وروى الحافظ سليمان المذدوى في «ينابع المودة» الباب الثاني عن ابن عباس (أي تقلبه من أصلاب الموحدين) نبي إلى نبي حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح. وحديث أن أبا طالب قال هو على ملة عبد المطلب. فلنذكر بعض ما ذكروه في عبد المطلب لتعلم يقينًا أنه كان على التوحيد.

أولًا: وهذا بعض ما ذكرته كتب السيرة في عبد المطلب أنه نشأ على أكمل الصفات، وانتهت إليه الرياسة، وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه، وتصيبه عقوبة. إلى أن هلك رجل ظلوم من أرض الشام ولم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك، ففكر وقال: والله إن وراء هذه الدار لدار يُجْزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته، أي فالظلوم شأنه أن تصيبه عقوبة، فإن أخرج من الدنيا ولم تصبه عقوبة فهي معدة له في الآخرة، فهذا إيمان منه باليوم الآخر علمه بالفراسة الصادقة، وهي نور إلهي يقع في القلب.

وكان عبد المطلب يرفض عبادة الأصنام ويعترف بوحدانية الله ـ تعالى ـ ولم تكن شريعة مشروعة في ذمته، فلهذا كانت عبادته التفكر في آلاء الله ومصنوعاته وصلة الأرحام واصطناع المعروف والاتصاف بمكارم الأخلاق. وكان يختلي كثيرًا بغار حراء ليجتمع فكره وقلبه في الاستغراق في التفكير في صفات الله وأفعاله الدالة عليه، وورد عنه في السنة أشياء كان متصفًا بها ويأمر الناس بفعلها، منها: الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح (زواج) المحارم ؟ـ وقطع يد السارق، والنهي عن وأد البنات، وتحريم الخمر والزنا، وألا يطوف بالبيت عريان.

وهـو أول من جعل الدية مائة من الإبل، فجاء الشرع مؤيدًا ذلك ومقرًّا، وكان لطيب ريحه تفوح منه رائحة المسك، وكان نور النبي ﷺ يضيء في غرته.

وفيه يقول القائل:

علا شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

وشيبة الحمد: لقب من ألقابه.

وكانت قريش إذا أصابها قحط شديد تأتي عبد المطلب فتستسقي به فيسقون.

ولما جاء أصحاب الفيل ليهدموا الكعبة كان لدعائه أمر جلل، فلقد أهلكهم الله بدعائه.

وقصـة أصحـاب الفيـل جاءت في القـرآن الكريم في سـورة الفيـل، ولكن ذكـرت القصة بكاملها في كتب السيرة.

وملخصها

أن أبرهة بنى «القليس» وهي الكنيسة التي أراد أبرهة أن يصرف حج العرب إليها بصنعاء، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسـة لم يبنَ مثلها لملك كان قبلك، ولسـت بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فلما تحدث الناس، خرج الكناني حتى أتى «القليس» (الكنيسة) فأحدث فيها ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة، فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة لما سمع قولك «أصرف إليها حج العرب».

فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وبعد ملاقاة بعض العرب الذيـن تصـدوا له وصل أبرهة إلى مكـة، وفى مكة طلب أبرهة من رسـوله إلى أهل مكة حناطة الحميري، وقال له: سـل عن سـيد هذه البلدة وشريفها، وقل له أنا لا أريد حربكم ولكن أريد هـدم البيـت، فـإذا وافق على ذلك فأتني به، فلما سـأل عـرف أنه عبد المطلب فقـال له ما أمر به أبرهـة، فقال عبـد المطلب: ما تريد حربه ليسـت لنا به طاقة، هذا بيـت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له: انطلق معي إليه؛ فإنه قد أمرني أن آتيه بك.

وانطلق وأكرمه عن أن يجلسـه تحته. وكره أن تراه الحبشـة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهـة عـن سريره فجلس على بسـاطه وأجلسـه معه عليـه إلى جانبه، ثم قال لترجمانـه: قل له،

مـا حاجتـك؟ فقال: حاجتي أن يرد عـليَّ الملك مائتى بعير أصابها لي، فلما قـال ذلك قال أبرهة لترجمانـه: قـل له، قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! قال لـه عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًّا سـيمنعه، قـال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك.

فلـما انصرفـوا عنه. انصرف عبد المطلـب إلى قريش وأخبرهم الخـبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعب الجبال خوفًا عليهم.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وخيله، فقال عبد المطلب:

لا هـم إن العبـد يمنـع رحلـه فـامـنـع رحـالك
لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم ومحالهـم غـدوا محالـك
إن يدخـلـوا الـبلـد الـحـرام فـأمـر مـا بـدا لـك

وقال أيضًا:

يـا رب لا أرجـو لهـم سـواك يـا رب فامـنع منهـم حماكا
إن عـدو البيـت قـد عـاداك فامنعهموا أن يخربوا قراكا

وقال أيضًا: يا معشر قريش! لا يصل إلى هدم البيت؛ لأن لهذا البيت ربًّا يحميه.

ومن كلام عبد المطلب:

يـا رب أنـت الملـك المحمـود وأنـت ربي الملـك المعبـود

من عندك الطارق التليد (أي القديم والجديد)

ثانيًـا: مـا كان يكرم بـه عبد المطلب حفيده محمـدًا ﷺ. وكان عبد المطلـب يكرم النبي ﷺ ويعظمه وهو صغير، ويقول: إن لابني هذا لشأنًا عظيمًا.

ولقد سمع من الكُهان والرهبان شيئًا كثيرًا، في شأن النبي ﷺ قبل ولادته وبعدها.

وكان عبد المطلب رئيس قريش مُعظمًا فيها، وكانوا يفرشون له حول الكعبة فيجلس ويجتمع حوله رؤساء قريش. ولا يستطيع أحد أن يجلس على فراشه ولا أن يطأه بقدمه، وكان النبي ﷺ وهو صغير يزاحم الناس فيدخل حتى يجلس بجنب جده عبد المطلب، وربما جاء قبل جده عبد

المطلب فجلس على فراشه، فإذا أراد أحد من أعمامه أن يمنعه يزجره جده عبد المطلب ويقول دعوه إن له لشأنًا، ثم يجلس على فراشه معه ويمسح ظهره، ويسره ما يراه يصنع.

وفي رواية: دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده، فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب، وفي رواية: دعوا ابني إنه ليؤسس ملكًا، وفي رواية: فإنه تحدثه نفسه بملك عظيم، وسيكون له شأن.

ومما اتصف به عبد المطلب أيضًا:

أنه كان من علماء قريش وحكمائها، وكان مجاب الدعوة، محرمًا للخمر على نفسه، وهو أول من تحنث (أي ابتعد عن الحنث والإثم، وهو نوع من التعبد) في غار حراء، والتحنث: التعبد الليالي ذوات العدو.

وكان إذا دخل شهر رمضان صعده (أي صعد الجبل إلى غار حراء) وأطعم المساكين، وكان صعوده للتخلي عن الناس يتفكر في جلال الله وعظمته، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رءوس الجبال، وكان يقال له مطعم الطير، ويقال له الفياض، ولد وفي رأسه شيبة، فقيل له شيبة الحمد، رجاء أنه يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له.

وفي الحج: كانت له إبل كثيرة يجمعها في الموسم ويسقي لبنها بالعسل في حوض من أدم عند زمزم، ويشتري الزبيب فينقعه بماء زمزم ويسقيه الحجاج.

ثالثًا: من مناقب عبد المطلب

حفر زمزم، يقول ابن هشام في «سيرته ج١ ص ٩٦ ـ ٩٩»:

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر إذ أُتي. فأمر بحفر زمزم. وكان أول ما بدأ به عبد المطلب من حفرها قال: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آتٍ فقال احفر طيبة، قال قلت: وما طيبة؟ قال: رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة، قلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي ونمت فيه فجاءني فقال: احفر المضْنُونة؟ فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال لي: احفر زمزم، قال قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدًا ولا تُذَمّ، تَسْقِي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نُقْرَة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

فلما بُيِّن له شأنها ودُل على موضعها، وعرف أنه قد صدق. قالت قريش: فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بنى سعد هُذَيْم، قال: نعم. قال: وكانت بأشراف الشام. فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبية من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر، والأرض إذ ذاك مَفَاوز، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام، فني ـ أي نفد ـ ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا ما أصابكم. فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه، قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبعٌ لرأيك، فمرنا بما شئت.

قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلًا واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركبٍ جميعًا، قالوا: نعم ما أمرت به، فقام كل واحد منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجزٌ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ارتحلوا، فارتحلوا حتى إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه، ثم نزل فشرب، وشرب أصحابه، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش: فقال: هلمّ إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا فجاءوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قُضي لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم. فارجع إلى سقايتك راشدًا، فرجع ورجعوا معه.

وكانت قريش قد نازعت عبد المطلب لوجود زمزم بين إساف ونائلة، وهما الوثنان اللذان كان ينحر عندهما، وهنا قالت قريش: لا ندعك تحفر هنا. وفي النهاية تركته وحيدًا يفعل ولم يكن ولد له إلا ابنه الحارث (ولم يكن عنده إلا الزبير والحارث) فقال لهم: سأحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به، ولما رأوه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر، وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرًا حتى بدا له الطي، فكبرَّ وعرفوا أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيه غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم فيها حين خرجت من مكة، ووجد فيها أسيافًا وأدراعًا، فقالت قريش: يا عبد المطلب، لنا معك في هذا شِرْك وحق، قال: لا، ولكن هلم إلى أمر نصف

بينى وبينكم، نضرب عليها بالقداح، قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا صاحب القداح الذى يضرب بها عند هبل، وقام عبد المطلب يدعو الله ﷻ. فضرب صاحب القداح وخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حليت به الكعبة فيما يزعمون، ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج.

ويومها أقسم عبد المطلب إذا أعطاه الله عشرة من الأبناء ليذبحن واحدًا ورزق بالأبناء، وأراد أن يفعل، وكان الذبيح عبد الله والد الرسول ﷺ، ولكن منعته قريش وافتداه بمائة ناقة.

وأبناء عبد المطلب هم: الحارث، عبد مناف (أبو طالب)، ضرار، الزبير، عبد العزى (أبو لهب)، المقوم، المغيرة لقب بحجلا، عبد الله، العباس، حمزة، وأم حكيم، عاتكة، برة، أميمة، أروى، صفية.

وأم عبد الله، وأبو طالب، والزبير، وجميع النساء غير صفية: فاطمة بنت عمرو بن عائذ...

ويكفيه قول رسول الله ﷺ: **«يبعث جدي عبد المطلب يوم القيامة في زي الملوك وأبهة الأشراف»**. ويروى أن عبد المطلب يعطى نور الأنبياء وجمال الملوك ويبعث أمة وحده، قال: لأنه كان على التوحيد، وكذلك كمن أخبر عنهم النبى ﷺ من أفعاله كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل أنه يبعث أمة وحده، ومن يبعث أمة وحده لا يبعد أنه يُعطى نور الأنبياء؛ لأنه مستقل لا تابع، وأما أنه يعطى جمال الملوك فلأنه كان سيد قريش في زمانه، وهو ملحق بالملوك الذين عدلوا وما ظلموا، ولقد عاش مائة وأربعين عامًا.

وبالجملة، فمن وقف على ما ذكره العلماء في ترجمته علم علمًا يقينًا أنه كان على التوحيد، وهكذا بقية آبائه إلى آدم عليه السلام...

وأبو طالب يقول عند وفاته أنه على ملة عبد المطلب إشارة إلى أنه على التوحيد ومكارم الأخلاق، ولو لم يصدر من أبي طالب من الإشارات الدالة على توحيده إلا قوله: «على ملة عبد المطلب» لكان ذلك كافيًا، فلله دره من لبيب حاذق.

المعارضون

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام جـ١ صـ١٠٤» عن الإمام علي عليه السلام: لما مات أبو طالب

أتيت النبي ﷺ، فقلت: إن عمك الشيخ الضال قد مات، فقال: «**اذهب فواره، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتيني**».

المؤيدون

١ـ قال الذهبي في «تاريخ الإسلام جـ١ صـ١٠٥» طبعة دار الغد العربي: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ عارض جنازة أبي طالب فقال: «**وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيرًا**».

٢ـ وفي «بحار الأنوار للحافظ محمد باقر المجلسي جـ٣٥، صـ١٢٥»، و«موسوعة المصطفى والعترة لحسين الشاكري جـ١، صـ١٣٢» قال: «**والله لأشفعن لعمي شفاعة يعجب بها أهل الثقلين**».

٣ـ وفي «السيرة الحلبية»: أخرج ابن سعد وابن عساكر وأبو داود والنسائي وابن الجارود وابن خزيمة عن سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ قال: لما مات أبو طالب أخبرت النبي بموته فبكى وقال: «**اذهب وغسِّله وكفِّنه وواره، غفر الله له ورحمه**».

وكذلك أخرجه سبط بن الجوزي في كتاب «تذكرة الخواص». ومعلوم أن الغسل والكفن والدفن خاصة بالمسلم وليس الكافر...

تعليق على المنكرين

١ـ هل من كان هذا شأنه يستحق من ابنه المسلم أن يقول عنه حين وفاته لرسول الله ﷺ: إن عمك الضال قد مات؟ أفلا كان يكفيه وهو ربيب النبي ﷺ والمنشأ على أخلاق الإسلام وعفة اللسان أن يقول: إن عمك قد مات، دون أن يصفه بالضلال؟

وهل هذا من بر الوالدين الذي نزل به القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ٥١].

٢ـ روى الطبراني والبيهقي: أن بنت أبي لهب واسمها سبيعة، وقيل درة، قدمت المدينة مسلمة مهاجرة، فقيل لها: لا تغني عنك هجرتك وأنت بنت حطب النار، فتأذت من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فاشتد غضبه، ثم قام على المنبر، فقال: «**ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي، من آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى**».

٣ـ روى الطبراني والإمام أحمد الترمذي عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «**لا تؤذوا**

الأحياء بسبب الأموات»، وقيل: قال ذلك لما شكى إليه عكرمة بن أبي جهل أن الناس يعيرونه بأبيه.

فإذا كان النبي ﷺ يتأذى ويغضب مما يؤذي من ثبت كفرهم، فكيف بعمه أبي طالب، وأدلة إسلامه راجحة على أدلة كفره.

ولا شك أن النطق بقبيح القول في حق أبي طالب والتشدق به في مجالس الخاصة والعامة وسفهاء الناس يؤذي أولاد الإمام علي الموجودين الآن، بل يؤذى أمواتهم في روضاتهم، ويؤذي النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٧٥].

وهذه الآيات هي ملحظ من قال بكفر مبغض أبي طالب.

فقد ذكر الإمام أحمد بن الحسين الموصلي الحنفي المشهور بابن وحشي في «شرحه على الكتاب المسمى بشهاب الأخبار» للعلامة محمد بن سلامة القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ أن بغض أبي طالب كفر، ونص على ذلك أيضًا من أئمة المالكية العلامة على الأجهوري في «فتاويه»، والتلمساني في «حاشيته على الشفاء» لأنه حماه ونصره بقوله وفعله، وفي ذكره بمكروه أذية للنبي ﷺ، وأذية النبي كفر فذاكره بمكروه كافر، والكافر يُقتل [نقلًا عن كتاب «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب» للعلامة أحمد بن زيني دحلان صـ ٦٦ ـ الناشر دار جوامع الكلمة بالقاهرة].

وإليك هذا الدليل القاطع الحاسم في قضية إسلام أبي طالب، والذي ذكره حسين الشاكري في «موسوعة المصطفى والعترة جـ١، صـ١٣١» وابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة جـ١٤ صـ٧٦».

قال: جاء الإمام علي عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وآذنه بموت أبيه أبي طالب فتوجع رسول الله توجعًا عظيمًا. وحزن عليه حزنًا شديدًا، ثم قال لعلي عليه السلام: **«امض يا علي فتول أمره، وتول غسله، وتحنيطه وتكفينه، فإذا دفعته على سريره فأعلمني»**، ففعل أمير المؤمنين عليه السلام ما أمره به ﷺ فلما دفعه على السرير، اعترضه النبي فرق وحزن، فأبنه بكلمة خالدة فيه، وقال: **«وصلتك رحم، وجزيت خيرًا يا عم، فلقد ربيت وكفلت صغيرًا، ونصرت وآزرت كبيرًا»**، ثم أقبل على الناس، وقال: **«أما والله لأ شفعن لعمي شفاعة يعجب بها أهل الثقلين»**.

المطلب الرابع

حكمة كفره وإسلامه[1]

المنكرون

قال ابن كثير في «السيرة النبوية جـ١ ص٢٢٦»: وكان استمرار أبي طالب على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية؛ إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترأوا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه.

المثبتون

قال الإمام أبو العزائم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «النجاه في سيرة رسول الله ﷺ ص ١٧٣»: والحقيقة أن سيدنا أبا طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه رجل سياسة من الطراز الأول في دعوة الإسلام، فالشواهد التي مرت من كلام الكهان، وعلامات النبوة جعلته يؤمن بسيدنا رسول الله ﷺ من البداية سرًّا، وأظهر أمام قريش عدم النطق بكلمة الإسلام حتى يتمكن من فض المنازعات بين الرسول الكريم وبين صناديد قريش من المشركين والكفار، وكان له ما أراد، والأدلة على ذلك كثيرة.

ذكر الحافظ سليمان القدوري الحنفي في «ينابيع المودة الباب ٥٦»: أظهر الحمزة إسلامه لشجاعته وقوته فكان سندًا للإسلام، وأبطن أبو طالب لحكمته ودرايته كي يفض المنازعات، وأسلم العباس قديمًا وكتم لنقل الأخبار من مكة للمدينة وحماية للمستضعفين.

تعليق على المؤيدين والمعارضين

إن رابطة الدين هي أقوى الروابط الاجتماعية، وأمامها تذوب، بل تزول وتتلاشى سائر الروابط النسبية والسببية، أيًّا كانت درجة كل نوع منها، حتى لقد يبلغ من قوة تأثيرها لأن تدفع الأخ أن يحارب في سبيلها أخاه، بل ابنه وأباه، إنها تمنع التوارث بمجرد اختلافها، إن الولاء والتناصر يتحققان بين المتقين فيها مهما تباعدوا نسبًا أو تفارقوا اجتماعيًّا.

ومن ثم، لا يمكن أن يقال: إن رابطة القرابة كانت سبب نصرة أبي طالب لرسول الله

---

(١) القول الصائب في إسلام أبي طالب للأستاذ عبد الحليم العزبي.

وحمايته له من أعدائه، تلك الحماية التى لولاها لما أمكن للدعوة الإسلامية أن تأخذ مسارها نحو الشيوع والانتشار.

كان أبو لهب أيضًا ـ وبنفس المقدار ـ جديرًا بنفس النصرة والحماية، فكلاهما عم رسول الله ﷺ لكن أبا لهب ـ على العكس من أبى طالب ـ كان حربًا عوانًا على سيدنا محمد ﷺ ودينه وأتباعه، بكل أصناف الحرب وأنواع الإيذاء.

وإذن، فالعقيدة هى الأولى أن تكون عامل التفرقة بين الرجلين، فأبو لهب ملكت عليه عقيدته كل آفاق تفكيره فلم ير شيئًا غيرها جديرًا بالنظر والاعتبار، فكانت وقفته المتحدية لله ولدين الله ولرسول الله، لا يرعى في ذلك رحمًا أو قرابة حتى عرض ابن أخيه للهلاك وإهدار الدم، بينما أبو طالب إذ أخذت عليه عقيدة الإسلام كل آفاق تفكيره بعد أن اقتنع بها، انطلاقًا من تجربته لصدق سيدنا محمد ﷺ على طول عمره قبل البعثة فرآها جديرة بالاعتبار بل والانتصار، ومن ثم اندفع يؤيدها بكل مرتخص وغال، معرضًا نفسه للمتاعب والأهوال.

المنكرون

أن النبى ﷺ لم يورث منه جعفرًا ولا عليًّا لاختلاف الدين.

المثبتون

إن الميراث في وقت موت أبى طالب لم يفرض، وإنما كان الأمر لأكبر الأبناء أو بوصية، فقد يكون أبو طالب أوصى بماله لعقيل فإنه كان يحبه كثيرًا، ولماذا لم يعط طالبًا، ولقد كان على الكفر أيضًا، ولكن إنما سكت الرسول تنفيذًا لوصية عمه أبي طالب.

المطلب الخامس

المثبتون يعرضون أدلة إسلامه[1]

١ـ ذكر الأستاذ عباس العقاد في كتابه «مطلع النور ص١٢٩» وابن أبى الحديد في «شرح نهج البلاغة جـ١٤ ص٥٢» و«السيرة الحلبيه جـ١، ص٤٣٦»، وابن هشام في «السيرة النبوية جـ١ ص٢٨٤»: أن أبا طالب عثر على النبى ﷺ وسيدنا على عليه السلام وكرم الله وجهه وهما يصليان، فقال لعلى: أى بنى، ما هذا الدين الذى أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته. فقال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه.

فهو لم ينه ابنه عن الإيمان بدين الإسلام، بل أقره مع ما علمه بأن ذلك يعرضه للمتاعب والأهوال.

٢ـ ذكر الذهبى في «تاريخ الإسلام جـ١، ص١٠٤»، وابن سعد في «الطبقات»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» والسيوطى في «الخصائص جـ١، ص٨٧»، وابن أبى الحديد في «شرح نهج البلاغة جـ٢ ص٣١١» و«موسوعة المصطفى والعترة جـ١ ص١٣٤» عن العباس رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: ما ترجو لأبى طالب؟

فقال: «كل خير من ربى».

فهل يرجو رسول الله ﷺ الخير كل الخير لأحد وجهت إليه دعوة الإسلام ولم يستجب لها؟

٣ـ ذكر المحب الطبرى في «الرياض النضرة»، والشيرازي في «الإتحاف في حب الأشراف»، وابن حجر في «الإصابة»، والسيوطي في «مناهل الصفا ص ٤٣» عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس أنه سأله رجل فقال: يا بن عم رسول الله، أخبرنى عن أبي طالب هل كان مسلمًا؟ قال: وكيف لم يكن مسلمًا وهو القائل:

قد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعبأ بقول الأباطل

إن أبا طالب كان مثله مثل أصحاب الكهف حين أسروا الإيمان وأظهروا الشرك، فآتاهم الله أجرهم مرتين.

---

(١) عن القول الصائب في إسلام أبى بكر للأستاذ عبد الحليم العربى.

٤ـ جاء في «شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ١٤ ص٧١» أن سيدنا أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه قال: إن أبا طالب ما مات حتى قال لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٥ـ جاء في كتاب «بحار الأنوار» للحافظ محمد باقر المجلسى نقلًا عن المناقب عن تفسير وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم عن أبيه عن أبى ذر الغفارى قال: والله ما مات أبو طالب حتى أسلم بلسان الحبشة، قال لرسول الله: اتفقه لسان الحبشة؟ قال: «يا عم، إن الله علمنى جميع الكلام». قال (يا محمد أسدن لمصاقًا فاطا لاها) يعنى أشهد مخلصًا لا إله إلا الله، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «إن الله أقر عيني بأبى طالب».

٦ـ جاء في «شرح نهج البلاغة جـ١٤ ص٧٦» و«السيرة الحلبية جـ١ ص٤٣٣»، و«موسوعة المصطفى والعترة جـ١ ص١٣٦»: أن أبا طالب لما رأى النبى ﷺ وعليًّا عليه السلام يصلى خلفه عن يمينه وكان معه ولده جعفر قال لجعفر: صل جناح ابن عمك، فصلى عن يساره.

مما يدل دلالة واضحة على إسلامه فعلًا وعلى معرفته بأحكام الصلاة ـ الصلاة قبل الإسراء صلاة خاصة ـ وإلا ما أقرَّ ابنه عليًّا على إسلامه وصلاته، ولما أمر ابنه الثانى جعفرًا بأن ينضم إلى أخيه في الصلاة، وهى عمود الإسلام، فالولد هو أعز ما يحرص الإنسان على تنشئته وفق إرادته، ومعتقداته، بل وعاداته، وبخاصة في ذلك العصر من الزمان وكذلك البيئة القبلية من المكان. بل كان هذا هو ديدن ناس ذلك الأوان. كما سجله كذلك القرآن حكاية عنهم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ويزيد هذا تأكيدًا أن أبا طالب أنشد شعرًا حينئذ سجل فيه سعادته، يقول:

إن عليًّا وجعفرًا ثقتى ... عند ملم الزمان والنوب

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... أخى لأمى، من بينهم، وأبى

والله لا أخذل النبى ولا ... يخذله من بَنِيَّ ذو حسب

فهو لا يكتفى بأمرهما بالصلاة خلف النبى ﷺ فحسب، وإنما هو يمدحهما ويثني عليهما في ذلك، ويأمرهما بنصرته وعدم خذلاته، ويقسم على ألا يصدر منه، ولا من أحد بنيه خذلان له أبدًا...

٧ـ أن زوجته السيدة فاطمة بنت أسد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأرضاها (أم علي وجعفر) كانت ثانية امرأة تدخل الإسلام بعد خديجة الكبرى زوجة رسول الله ﷺ مع ما هو معلوم من تأثير كل أم

عـلى بنيها: ذكورًا وإناثًا، وما هـو معلوم أيضًا من أن تقاليد الزمن كانت تقتضى بألا يقر الزوج زوجته إذا أخرجت من عقيدته إلى عقيدة أخرى...

ومن ثم، كيف يتصور أن يقرها أبو طالب وهو من هو في قومه على إسلامها، بينما يكون هو باقيًا ومصرًّا على أن يكون على غير الإسلام؟

٨ـ لما علم أن قريش عملت على الدس لدى نجاشـى الحبشـة ضد مهاجرى المسـلمين إليها كتب إليه كتابين من الشعر، ينبهه في أحدهما إلى هذا الدس، وأغراه في أن يكون على الأصل في شهامته وبسط جواره على كل من يلجأ إلى حماه، وذلك إذ يقول فيه كما في سيرة ابن هشام جـ١ ص٣٧١ عن ابن اسحاق، وابن كثير في السيرة جـ١ ص٢٦١:

تعلم أبيـت اللعن أنك ماجد ... كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلـم بـأن الله زادك بسطة ... وأسـباب خير كلهـا بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ... ينال الأعـادى نفعها والأقارب

المجانب الداخل في حمى الإنسان، لازب: لاصق، فيض: جواد، سجال:عطايا. ويدعوه في الثانية إلى الإسلام، فيقول:

تعلـم مليك الحبـش أن محمدًا ... نبيٌّ كموسـى والمسـيح ابن مريم
أتى بالهـدى مثل الـذى أتيا به ... فـكل بأمـر الله يهـدى لمعصـم
وأنكـم تتلونـه في كتابكـم ... لصدق حديث لا حديث المرحم
فـلا تجعلـوا لله نـدًّا وأسـلموا ... فـإن طريـق الحـق ليـس بمظلـم

ـ فهل من يدعوا إلى الإسلام يكون غير مسلم؟

٩ ـ جاء في «السـيرة النبوية» لابن هشـام، وفى «السـيرة النبوية» لابن كثير: أن أبا طالب لما بلغه أن أحد المشركين، وضع أقذارًا على ظهر النبى ﷺ وهو سـاجد في الصلاة وأنه يسـخر من حركاته فيها، ويظاهره في هذه السـخرية بعض الحاضرين، جاء مسرعًا مغضبًا إلى حيث يوجد النبى ﷺ حينئذ، وسأل من فعل به هذا؟

فلما علم أنه الشـاعر ابن الزبعرى لطمه لطمة أدمتـه، وألقى عليه نفس القاذورات، ولوث

بها لحيته ثم توجه إلى النبى ﷺ في عطف وحنان فقال له: أرضيت؟ ولم يلبث أن جادت قريحته بشعر يتحدى فيه كل من يقف في وجه النبى ﷺ ودعوته إلى دينه، يقول فيه:

أنت النبى محمد	قدما أعز مسود
أنى تضام ولم أمت	وأنا الشجاع العربد
وبطاح مكة لا يرى	فيها نجيع أسود
وبنو أبيك كأنهم	أسد العرين توقدوا
نعم الأرومة أصلها	عمر الحطيم الأوحد
ولقد عهدتك صادقًا	بالقول لا تتزيد
ما زلت تنطق بالصوا	ب وأنت طفل أمرد

١٠ـ أن أبا طالب ظل على موقفه من نصره النبى ﷺ وحمايته له ولدعوته طول حياته، ولم يسلمه ـ تحت أى ظرف إلى خصومه ابدًا.

١١ـ أن أبا طالب صمد لتحدى قريش بالمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية مقيمًا بشعبه في مكة ثلاث سنوات متواصلة مع بنى هاشم.

عانوا خلالها جميعًا من الشظف والمسغبة والحرمان، مما تعجز الكلمات عن وصف مداه وتقدير عنائه، دون أن يتطرق إليه الوهن أو الضعف أو التردد، فهل يكون ذلك لمجرد القرابة دون أن يكون للعقيدة مدخل فيه؟

بالله عليكم! فكروا وأنصفوا. هل يضحى أحد بابنه إلا في سبيل العقيدة، هل من المعقول أن أبا طالب يقدم ابنه عليًا فداء لرسول الله كل ليلة ينام مكانه في الشعب وهو غير مؤمن به وبرسالته؟!

ثم كان ينشد لابنه علي قائلًا:

اصبرن يا بنى فالصبر أحجى	كل حى مصيره لشعوب
قد بذلناك والبلاء شديد	لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأعز ذى الحسب الثاقب	والباع، والكريم النجيب

فيجيبه الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ و[illegible]:

أتأمرنـى بالصـبر في نصر أحمد ... ووالله ماقلت الذى قلت جازعًا
ولكنى أحببت أن ترى نصرتى ... وتعلم أنـى لم أزل لـك طائعًا
وسعيى لوجه الله في نصر أحمد ... نبى الهدى المحمود طفلًا ويافعًا

١٢ ـ أن أبا طالب لم يتردد في تصديق النبى ﷺ حينما أخبره أن الأرضة أكلت وثيقة المقاطعة المودوعـة بالكعبة ولم يبق فيها إلا اسـم الله فقط، فخرج إلى قريـش متحديًا بذلك، وكان الأمر كما أخبر به الرسـول ﷺ تمامًا، فهل يكون ذلك غير مسـلم؟ أو أهل يبقى ذلك غير مسـلم لو لم يكن مسلمًا من قبل؟

١٣ ـ أن النبى ﷺ ظل مقيمًا بمكة يدعو إلى الإسـلام آمنًا على حياته طيلة حياة أبى طالب، ولم تضق عليه الأرض بمكة إلا بعد أن فقده بموته.

فكان ـ إذن ـ الوحى له بالهجرة؛ لأن البقاء في مكة بعد أبى طالب لم يكن يعنى فقط اجهاض الدعوة، وإكراه المؤمنين بها على الارتداد عنها.

وإنما كان يعنى أيضًا الإجهاز على الإسـلام نهائيًا من الأسـاس لـو تعرض النبى ﷺ للقتل وهذا ما خطط له القرشيون بالفعل، وعلى رأسهم عمه أبو لهب، وكانت ساعة الصفر في نفس الليلـة التـى أذن النبى ﷺ فيها بالهجـرة من مكة إلى المدينة، فقد ذكر ابـن أبى الحديد في «شرح النهج جـ١٤ ص٧٠» والشـيخ يوسـف النبهانى في «جواهر البحار جـ١ ص٣١١»: أن سيدنا جبريل هبط على رسول الله ﷺ وقال: «يا محمد، أخرج من مكة فليس لك فيها ناصر».

فهل من كان وزنه بالنسبة للدعوة الإسلامية أن حياته في مكة حياتها وحياة نبيها، وأن مماته بمكة تعريض لهما إلى الضياع والفناء، يكون على غير دين الإسلام؟!

١٤ ـ نـوه أبـو طالب بنبـوة النبى ﷺ قبل أن يبعـث؛ لأنه ذكر ذلـك في الخطبة التى خطب بهـا النبى ﷺ حين تزوج بالسـيدة خديجـة رضي الله عنها وأرضاها، فقال في خطبتـه تلك: «الحمد لله الـذي جعلنا من ذريـة إبراهيم وزرع إسـماعيل وضئضئي معد وعنصر مـضر، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخـى هذا محمـد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح شرفًا ونبـلًا وفضلًا وعقلًا وهو والله بعد هـذا لـه نبأ عظيم وخطر جسـيم». وكان هذا قبل بعثته ﷺ بخمس عشرة سـنة، وقد ورد نص هـذه الخطبة في صفوة الصفوة لابن الجوزى جـ١ ص٧٤ط دار المعرفة بيروت، ووردت كاملة في هامش تزويج خديجة، وسيرة ابن هشام تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

ـ انظر كيف تفرس أبو طالب فيه ﷺ كل خير قبل البعثة، فكان الأمر كما قال، وذلك من أقوى الدلائل على إيمانه وتصديقه.

١٥ـ روى ابن أبى الحديد في «شرح نهج البلاغة جـ١٤ ص٦٧» و«موسوعة المصطفى والعتره جـ١ ص٣٣١»: جاء في الحديث القدسى أنه ﷺ قال: «نزل علي جبريل، فقال: إن الله يقرئك السلام، ويقول: إني حرمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك، وحجر كفلك».

١٦ـ نقل العلامة القدورى الحنفى في «ينابيع المودة الباب الرابع عشر» عن محمد بن كعب: رأى أبو طالب النبى ﷺ ينفل في فم علي أي يدخل لعاب فمه في فم على، فقال: ما هذا يا ابن أخي؟ فقال: «إيمان وحكمة»، فقال أبو طالب لعلى: يابني! انصر ابن عمك ووازره. أما يدل هذا الخبر على إيمان أبى طالب، فإنه لو لم يكن مؤمنًا بالنبي ﷺ لمنعه وزجره، ولكنه أمر عليًا بنصرته.

١٧ ـ جاء في كتاب «ليالي بيشاور للسيد محمد الموسوي الشيرازي ص٥٠٩» قال ﷺ: «أنا وكافل اليتم في الجنة هكذا ـ وأشار بسبابته والوسطى منضمتين مرفوعتين»، ونقله ابن أبى الحديد في شرح نهج البلاغة جـ١٤ ص٦٩ ـ ط دار إحياء الكتب العربية». ومن الواضح أنه لم يقصد بحديثه الشريف كل من يكفل يتيمًا، فإنا نجد بعض الكافلين للأيتام لا يستحقون ذلك المقام وهو جوار سيد الأنام في الجنة؛ لأنهم إلى جانب كفالتهم لليتيم يعملون المعاصى الكبيرة والذنوب العظيمة، التى يستحقون بها جهنم لا محالة....

ولكنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قصد بحديثه الشريف جده عبد المطلب وعمه أبا طالب اللذين قاما بأمره، وتكفلاه ورباه صغيرًا حتى إنه ﷺ كان يعرف في مكة بيتيم أبى طالب بعد وفاة جده عبد المطلب. فقد تكفل أبو طالب رسول الله ﷺ وكان في الثامنة من العمر، وكان يفضله على أولاده، ويقيه بهم.

أدلة الشعر التى تؤكد إسلامه

١ـ بعد رد الراهب بحيرى دريدًا وتمامًا ودريسًا، طلب من عمه أبى طالب أن يعود به ﷺ إلى مكة، فقال أبو طالب:

فما رجعوا حتى رأوا من محمد ... أحاديث تجلو غم كل فؤاد
وحتى رأوا أحبار كل مدينة ... سجودًا له من عصبة وفرادى
دريدًا وتمامًا وقد كان شاهدًا ... دريسًا وهموا كلهم بفساد
فقال لهم قولًا بحيرى وأيقنوا ... له بعد تكذيب وطول بعاد
كما قال للرهط الذين تهودوا ... وجاهدهم في الله كل جهاد
فقال ولم يترك له النصح ردّه ... فإن له أرصاد كل مصاب
إني أخاف الحاسدين وإنه ... لفي الكتب مكتوب بكل مداد

(السيوطي في الخصائص الكبرى جـ١ ص٨٥)

٢ـ بعد أن جاء سادة قريش إلى أبي طالب يطلبون منه أن يكف النبي ﷺ عن دعوته. ورفض النبي ﷺ وآله... قال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر بذلك وقرّ منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك صادق ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
ولولا المسبةُ أو حذارِ ملامةٍ ... لوجدتني سمحًا بذلك مبينا

ابن كثير في «السيرة النبوية جـ١»، والذهبي في «تاريخ الإسلام جـ١ ص٦٦»، وابن أبي الحديد في «شرح النهج جـ١٤ ص٥٥»، وسبط بن الجوزي في «التذكرة ص١٨».

٣ـ قصيدة أبي طالب لأهل مكة بالحرم، والتي يخبرهم فيها بأنه لن يسلم لهم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلك دونه، فقال في بعض أبياتها.. واللفظ الكامل لابن هشام جاء في خمس صفحات من «السيرة النبوية ص٢٦٧ جـ١ ـ طبعة دار المنار ١٩٩٣»:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونطعن ألا أمركم في بلابل[1]
كذبتم وبيت الله نبزى[2] محمدا ... ولما نطاعن دونه ونناضل

(١) بلابل: وساوس الهموم.
(٢) نبزى: أي نسلبه ونغلبه عليه.

ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمرى لقد كلفت وجدًا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل
فمن مثله في الناس أى مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلهًا ليس عنه بغافل
فوالله لولا أن أجىء بسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
حدبت بنفسى دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا[1] والكلاكل[2]
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينًا حقه غير باطل

وهذه الأبيات كما وردت في «السيرة» لابن هشام، وردت عند ابن اسحاق وابن كثير في «السيرة النبوية جـ١ ص٢٣٩ ـ ٢٤٣»، والذهبى في «تاريخ الإسلام جـ١ ص٧٢».

ومن الملاحظ أن ابن كثير بدل كلمة (بسنه) التى تعنى التقصير في نصرته ﷺ إلى كلمة (بسبة) التى تعنى أنه كفر بدعوته، وهذه علامة استفهام نضعها حول ابن كثير في هذا الفعل وخصوصًا وهو ينقل القصيدة عن ابن هشام، ولعل ذلك يرجع إلى:

١ـ دست هذه الكلمة في تراث ابن كثير.

٢ـ وصول المعلومة خاطئة ولا غير ذلك.

٣ـ بعد أن تحالفوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب قال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤيًّا وخصًّا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا ... نبيًّا كموسى خط في أول الكتب
وأن عليه في العباد محبة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب

«سيرة ابن هشام جـ١ ص٣٩٠».

٤ـ بعد أن اجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب لنصرة رسول الله ﷺ وصحابته قام أبو طالب بمدحهم ويبين لهم فضل رسول الله فيهم، فقال:

---

(١) الذرا: أعلى ظهر البعير.
(٢) الكلاكل: عظم الصدر.

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومًا فإن محمدًا هو المصطفى من سرها وكريمها

ابن هشام في «السيرة النبوية جـ١ ص٣٠٦» وابن كثير في «السيرة النبوية جـ١ ص٩٨»، وقول أبي طالب السابق يتفق وقول الرسول ﷺ **«واصطفاني من بني هاشم»**.

٥ـ بعد أن وجد الأرضة أكلت ما في الصحيفة وتركت اسم الله قال:

ألم يأتكم أن الصحيفة مزقت وأن كل من لم يرضه الله يفسد

السيوطي في «الخصائص جـ١ ص١٥١» و«ابن هشام جـ١ ص٤١٥»، و«ابن كثير جـ١ ص٢٨٢».

٦ـ نقل ابن أبى الحديد في «شرح نهج البلاغة جـ١٤ ص٧٨» عن أبي طالب قال:

يا شاهد الله عليَّ فاشهد أني على دين النبي أحمد

من ضل في الدين فإني مهتد

فهل يليق أن ينسب قائل هذه الكلمات إلى الكفر؟

٧ـ ومن أشعار أبى طالب الدالة على إيمانه وحثه أخاه حمزه لما أعلن إسلامه أمام طغاة قريش على مؤازرة ابن أخيه:

فصبرًا أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهرًا للدين وفقت صابرًا
نبى أتى بالدين من عند ربه بصدق وحق لا تكن حمزة كافرًا
فقد سرني إذ قلت لبيك مؤمنًا فكن لرسول الله في الدين ناصرًا
وناد قريشًا بالذى قد أتيته جهارًا وقل ما كان أحمد ساحرًا

«شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ٣ ص٣١٥»

ولما حضرته الوفاة دعا أولاده وإخوته وأحلافه وأوصاهم بقوله:

أوصي بنصر نبي الخير أربعة ابني عليًا وشيخ القوم عباسا
وحمزة الأسد الحامي حقيقته وجعفرًا أن تذودوا دونه الناسا
كونوا فداء لكم أمي وما ولدت في نصر أحمد دون الناس أتراسا

المطلب السادس

وصية أبي طالب[1]

جاء في كتاب «النجاه في سيرة رسول الله ﷺ» للإمام أبي العزائم ص١٧٤، و«السيرة الحلبية جـ١ ص٣٧٥»، و«مطلع النور للأستاذ عباس العقاد ص١٣٢» ما يلي:

جمع أبو طالب عند وفاته قريشًا وخطبهم خطبة يحثهم فيها على اتباع النبى ﷺ وأوصاهم وكان من وصيته أن قال: يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، فيكم المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع، لم تتركو للعرب في المآثر نصيبًا إلا أحرزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس فضيلة، ولهم بها إليكم الوسيلة. أوصيكم بتعظيم الكعبة، فإن فيها مرضاة للرب، وقوامًا للمعاش، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن وصلة الرحم منسأة ـ أى فسحة ـ في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم.

أجيبوا الداعى، وأعطو السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام، وإنى أوصيكم بمحمد خيرًا، فإنه الأمين في قريش وهو الصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به.

وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن: أى البغض، وأيم الله، كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس وقد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محصته العرب ودارها، وأعطته قيادها دونكم.

يا معشر قريش.. كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد.

---

(١) عن القول «الصائب في إسلام أبي طالب» للأستاذ عبد الحليم العزمي.

وفى لفظ آخر لسبط ابن الجوزى في «تذكرة الخواص ص١٩»: لما حضرته الوفاة دعا بنى عبد المطلب، فقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم من أمره، فأطيعوه ترشدوا.

وفى رواية فاتبعوه، واعينوه ترشدوا. «السيوطى في الخصائص جـ١ ص٨٧».

بالله عليك، أيها المنصف اللبيب، هل ترى هذه الوصية تصدر من مشرك كافر بالرسالة والرسول؟!